حفريات الخطاب الغربي

الغيرية ومسألة السلطة والمعرفة

الدكتور بدر المقري

الكلمات المفتاحية: بدر المقري، حفريات الخطاب الغربي، المعرفة، فوكو، السلطة، رينان، الكولونيالية.

أن تخص قراءة الخطاب الغربي في صناعة ما هو خارج الغرب، بالاقتصار على العلاقة الوطيدة بين المعرفة والمؤسسة الدينية، والسياسية، والعسكرية في الغرب، فذلك لا يعدو أن يكون أمدًا قصيرًا، لأن القراءة تتم من خارج المتن عوضًا من أن تتم من داخله.

وقد سوى أندري ميكيل André Miquel (ولد سنة 1929) هذه المقاربة بوضوح، في سيرته الذاتية الدالة L'Orient d'une vie.

فلما كان الخطاب الغربي في صناعة الشرق، إنتاجًا معرفيًا لحضارة التوسع الاستعماري، فإنه لا يستغرب أن تستغل مؤسسة السلطة ثمار مؤسسة المعرفة، في إطار اختيارات محددة. وهو ما اتخذه أندري ميكيل ذريعة لرفض تحوّل هذا البعد الوظيفي للمعرفة في إسداء خدمات للسلطة، إلى أساس في اعتبار المعرفة الغربية في صناعة الشرق معرفة استعمارية، لأن الأصل هو أن يراعي المتلقي التزام تلك المعرفة بآليات إبستمولوجية فرضها السياق الزماني[1].

وقد حذونا حذو ميشيل فوكو Michel Foucault، في الدلالة الاصطلاحية المركبة للسلطة والمعرفة باعتبار وظيفتهما المنهجية، من أجل مقاربة موضوعية لهذا الإشكال.

---

[1] Miquel (A.), *L'Orient d'une vie*, p.101

فالمعرفة عند فوكو إنتاج شـبه جذري للمصـلحة، وقد تتحول إلى مجرد أداة منفصـلة عن الحقيقة ومتصـلة بالصراع، إلى درجة انحرافها عن مسارها. وهكذا تتفكك الصلة الأصلية للمعرفة بالحقيقة، لأن الحقيقة في المآل ليست غير نتيجة مزيفة. وليس معيقًا في ظل هذه المواصفات، أن تكون المعرفة ابتكارًا يخفي سلطة موازية ومغايرة[2].

لقد توّطد الاستشراق منذ أواخر القرن 18، على صناعة الشرق سياسيًّا، واجتماعيًّا، وعسكريًّا، وعقائديًّا، وثقافيًّا، وحضاريًّا، وتخيليًّا لأن الاستشراق هو النواة المعرفية لسلطة المصالح الكلية للغرب[3].

إنّ السلطة عندما توظّف المعرفة بدفتر تحملات من الضوابط المتحكمة، فإن الجوهر في كل ذلك، هو مجموع الأدوات الإجرائيّة للسلطة في توجيه المعرفة، لأنه ليست هناك أصلًا معرفة غير موجّهة[4]، وقد عبر شارل مونتيسكيو Charles Montesquieu (1689-1755) عن هذا المنطوق، بقوله: "أنا إنسان بالضرورة، ولست فرنسيًّا إلا بالصدفة"[5].

وإذا كان محمد أركون (1928-2010)، من الداعين إلى ضرورة دراسة صناعة الشرق من زاوية السلطة والمعرفة، بالاقتصـار على توظيف الأدوات الإجرائية المسـتنبطة من الأنتروبولوجيا، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية على شاكلة خاصة[6]، فإن الأردّ علينا ولاشك، هو الانتباه إلى أن الخطاب الغربي في صناعة الشرق، يعتبر في آن واحد إفرازًا لحاجات ومصالح السلطة (المؤسسة) في الغرب، ونتيجة طبيعية لعقل ميتافيزيقي يتمركز على ذاته، ويصنع ثقافة الآخر الذي يوجد خارجه، بعد إعادة تشكيلها لأنها أصلًا توجد خارج التاريخ[7].

السلطة والمعرفة في سياقهما الكولونيالي

إذا مكنّا في خلدنا، السـؤال الآتي، لماذا ارتبطت علامات صـناعة الشـرق، الذي يوجد خارج الغرب، بالمرحلة الكولونيالية على وجه التحديد؟ فإن الفرضيات الأقرب في الجواب، ثلاث:

---

[2] Dreyfus (M.), Rabinow (P.), *Michel Foucault : un parcours philosophique*, Gallimard, Paris, 1984, p.82

– دروس ميشيل فوكو، ترجمة محمد ميلاد، (الدار البيضاء: دار توبقال 1994)، الصفحة 9.

[3] إدوارد سعيد، **الإستشراق**، الصفحة 38.

[4] Turin (Y.), Affrontements culturels dans l'Algérie Coloniale (1830-1880), éd. Maspero, Paris, 1971, p.37

[5] Montesquieu (Ch.), *Pensées- Le Spicilège*, éd. Robert Laffont, Paris, 1991, p.197

[6] "مقابلة مع محمد أركون". إنجاز عبد الغني أبو العزم، مجلة **الفكر العربي**، العدد 32 (بيروت 1983)، الصفحة 315.

[7] عمر كوش، "الإستشراق بين الميتافزيقا والأنتروبولوجيا"، مجلة **الإجتهاد**، العدد 49 (بيروت 2001)، الصفحة 77.

الفرضية الأولى

من شأن المقاربة الإبستمولوجية أن تضمن لنا فيصلًا بين صناعة الشرق، وبين البحث في حفريات الخطاب المقترن بتلك الصناعة[8]. ولما كان اختيار الإبستمولوجيا أمرًا ليس خالصًا كليًّا ، فقد استنتج محمد أركون من توظيفها، أنّ الخطاب الذي خصّ به الغرب صناعة الآخر (الشرق)، يعدّ منظومة ثقافية غربية ملتزمة بمناهج وتقاليد معرفية تعود إلى القرن 19، وهو ما يوحي بأن هذه المنظومة قد انتهت[9].

والأمر ليس كذلك عند هشام جعيط، لأن صناعة الآخر (الشرق) لا تزال قائمة، ولكن في سياق جديد، هو المجالات الجغرافية الثقافية Aires Culturelles[10].

ومهما اختلفت الآراء، فإن القراءة النقدية التي تعمل الفكر في صناعة الآخر (الشرق) في سياق المجالات الجغرافية الثقافية، باستنساخ المناهج التقليدية التي كانت متداولة في الفكر الإسلامي الحديث، من قبيل الانطباعية التجزيئية، أو الإجمالية المبسّطة، ستكون متجاوزة بالنظر إلى المستحدث من طرائق صناعة الشرق ذاتها[11].

إن ذلك المستشرق أو ذلك المستعرب، أو هذا الخبير في شؤون العالم العربي والإسلامي، متوسل بمنهج. ومهما كان هذا المنهج علميًّا في بناه السطحيّة، فإن بناه العميقة معايير مجردة وثابتة.

ولما أنكر المستعرب الفرنسي جاك بيرك Jacques Berque اعتبار صناعة الشرق منهجًا في حد ذاته، وألح على اعتبار هذه الصناعة وعاء يجمع جملة من المناهج[12]، فلأنّ المستحسن عنده هو أنّ المقاربة النقدية لصناعة الشرق، يجب أن تتم بأدوات إجرائية ومناهج محيلة كلية على الغرب[13].

ولعل هذا المبحث يستحكم في بيان ما اتخذه جاك بيرك ضابطًا إجرائيًّا و منهجيًّا، بالتنبيه على بعض العلامات المنهجية الكبرى الآتية:

---

[8] منير شفيق، **في الحداثة والخطاب الحداثي**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي 1999)، الصفحة21.

[9] أحمد الشيخ، **من نقد الإستشراق إلى نقد الإستغراب**، الصفحة 32.

[10] "حوار مع هشام جعيط"، مجلة **دراسات شرقية**، العدد 7 و8 (باريس 1990)، الصفحة 9.

[11] Kemp (P.-E.), *Orientalistes éconduits, Orientalisme reconduit*, Arabica, Paris, Tome XXVII, 1980, p.156

[12] **من نقد الإستشراق إلى نقد الاستغراب**، مصدر سابق، الصفحة 32.

[13] وجيه كوثراني، "ماذا بعد النقد العربي للإستشراق ونقد النقد؟" مجلة **المنطلق**، العدد 112 (بيروت 1995)، الصفحة 115.

أ- المنهج الفيلولوجي: وجوهره مركب من الدراسة التحليلية النقدية للنص ضبطًا وتحقيقًا[14]، مع اعتبار المتن المدروس فرعًا من أصل. ولذلك وجب صرف الإهتمام إلى أصول الإنسية التوراتية أو النصرانية، أو إلى أصول الإنسية الإغريقية واليونانية واللاتينية[15].

وها هو إرنست رينان Ernest Renan (1823-1892) يوظف الفيلولوجيا في كتابه *L'avenir de la science*، ليؤكد أن عقل الإنسان المسلم مسيّج بالغباء، لأن لغته العربية قاصرة عن التدبر[16].

ب- المنهج الذاتي: وجوهره هو قراءة المتن، باعتباره وليد ذاته. ويفرض هذا قراءة كل متن مستقلًا عن تأثيرات اللحظة التاريخية والإجتماعية[17].

ج- المنهج التاريخي: وجوهره هو بيان أسباب الوقائع التاريخية وآفاقها[18]، مع الإلتزام بعرض كل ذلك على محددات المركزية الغربية. و يتم استيعاب ذلك وفهمه، بأن يكون المدار في الكليات المنهجية على قراءة التاريخ بعيون الغرب.

د- المنهج الأنتروبولوجي السوسيو- ثقافي: وجوهره هو تحكم المركزية الغربية في الدراسة البنيوية لمجتمع الشرق، مع توكيل العناية بأبعاده الرمزية[19].

إن مقصدنا ليس بتة، عرض كل البنى المنهجية التي تجتمع في الوعاء المنهجي الأكبر الخاص بصناعة الشرق، كما ذهب إلى ذلك جاك بيرك. ولكن الآليّة الحجاجيّة تضمن لنا مندوحة موضوعيّة لكي لا يتنافى ذلك كليًّا، مع الإشارة إلى أن مكونات ذلك الوعاء المنهجي إما أن تكون نوعية أو كمية.

وأما المنهج التاريخي فمهما تنوعت بناه السطحية والعميقة، أو تصوراته الوصفية، أو أدواته الإجرائية، فإن ما يسترشد به باعتباره معطى غير متحول، هو اكتمال مقصده بعرض الوقائع. والمفصلي، أن يتوطّد ذلك بكل ما من شأنه أن يحيل على ثوابت التشكيلات الخطابية الغربية المفضية إلى منطوق ومفهوم المركزية التي تصنع الشرق وتصوغه.

---

[14] سعيد علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة** (بروت: دار الكتاب اللبناني 1985)، الصفحة 171.

[15] حسن جابر، "الإستشراق والاتجاهات المنهجية المعاصرة"، مجلة **المنطلق**، العدد 112 (بيروت 1995)، الصفحة 94.

[16] Renan (E.), *L'avenir de la science*, Garnier- Flammarion, Paris, 1995 , p.249.

[17] حسن جابر، **الإستشراق والاتجاهات المنهجية المعاصرة**، الصفحة 93.

[18] Lefort (CL.), *Les formes de l'histoire*, Gallimard, Paris, 1975 , p.45

[19] Leclerc (G.), *Anthropologie et colonialisme*, Fayard, Paris, 1972, p.75.

الفرضية الثانية

أحدث المفكر المصري الراحل، أنور عبد الملك (1924-2012)، ضجة فكرية كبرى، عندما كاشف سنة 1963 بأن الإستشراق في أزمة[20]. وهو ما لم يستسغه بعض المفكرين الغربيين بدعوة أنّ نقد الإستشراق من خارج صرحه، أمر مرفوض منهجيًّا وموضوعيًّا[21].

وليس نافلة التذكير بأن ماسنيون Louis Massignon (1883-1962)، وهو أحد رواد الإستشراق التقليدي، دعا إلى تجديد الأدوات الإجرائيّة للإستشراق بتوظيف أدوات العلوم الإنسانية[22].

وقد اختزل أنور عبد الملك، الأزمة المركبة للإستشراق، في متناقضين رئيسين:

أ- سكون الشرق وعدم تحوله.

ب- إسقاط التحول على الشرق من جهة إحالته على الغرب (المركز)[23].

وقد صاغ ماسنيون المتناقضين معًا، عندما اعتبر في أواخر الخمسينيات، إسرائيل ذاتًا فاعلة لأنها تتحكم في خيوط التكنولوجيا، ولقدرتها الفائقة على الإستفادة من تفوّقها الذهني الذي أثمره التعود على بناء الإشكالات. وأما العرب، فهم ذات مفعول بها عاجزة عن التأسي بأسباب نجاح النموذج الإسرائيلي[24].

وإذا كان مكسيم رودنسون Maxime Rodinson (1915-2004) قد اعتبر العلة الكبرى في أزمة الإستشراق تطور العلوم الإنسانية والإجتماعية وأفول فكرة المركزية الأوربية[25]، فإن الرشد المنهجي يفرض علينا سبر البنى الفلسفية والسياسية لأزمة الإستشراق. والمقدم في ذلك تضعضع المشروع الإستعماري المباشر أو التقليدي، وإن كان بعض المستعربين قد هوّنوا من تأثير هذا العامل ، بدعوى التمييز بين الخطاب الغربي في صناعة الآخر، في سياق تجاوبه مع الوضع السياسي السائد في الغرب، وبين ذلك الخطاب إذا حركته نزعات سياسية[26]. ولم يتوان مكسيم رودنسون عن التدليل على ذلك، بمساهمة النخبة المثقفة في الدول المستعمَرة (بفتح الميم)، في التعريف بذواتها

---

[20] Abdel-Malek (A.), *L'orientalisme en crise*, Diogène, Paris, N°44, 1963, p.109.

[21] Gilliot (C.), *Une leçon magistrale d'orientalisme*, Arabica, Paris, 2000, p.150.

[22] بنسالم حميش، **الإستشراق في أفق انسداده**، الصفحة 75.

[23] Abdel-Malek (A.), *L'orientalisme en crise*, p.139.

[24] Massignon (L.), *Opera minora*, P.U.F, Paris, 1969, vol. III, p.469.

[25] Rodinson (M.), *La fascination de l'islam*, p.119.

[26] ibid., p.125.

الثقافية بعد نيل تلك الدول استقلالها[27]. ويقصد مكسيم رودنسون بالذات الثقافية في هذا المقام، كل ما يصلح ثقافيًّا لأن يعلم ويخبر عنه.

ويمكن إيجاز العلامات الساجعة للبنى الفكرية لأزمة الإستشراق، في ما يأتي:

- سقوط منظومة المركزية الأوربية[28].

- تطور مناهج العلوم الإنسانية والإجتماعية[29].

وقد جعل مكسيم رودنسون من هذه العلامات، وصلة إلى القول بأن مصطلح الإستشراق لم تعد له حمولة دلالية، لأنه ليس هناك شرق، بل هناك ثقافات وشعوب ومجتمعات، تقابلها منظومات معرفية لها موضوعاتها وقضاياها النوعية[30].

وذهب محمد أركون إلى أن تلك العلامات، دليل على أنّ صناعة الشرق لا تعدو أن تكون حقلًا معرفيًّا هامشيًّا، في أقسام الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الأوربية[31].

ومما يوطد القول بأن إنحلال البنى الفلسفية والسياسية التقليدية لصناعة الشرق، ليس كافيًا للقول بنهاية الإستشراق التقليدي، تأكيد مكسيم رودنسون، أنّ تصدع قناة الإستشراق التقليدي حكم يحتاج إلى دليل، لأن أشكال صناعة الشرق هي التي تختلف باختلاف السياقات الذاتية والموضوعية[32].

الفرضية الثالثة

لا يخفى على اللبيب ظهور طبقة جديدة من المنتسبين معرفيًّا إلى صناعة الشرق، لا يمكن قياسها بتاتًا على طبقات الرواد، لا من حيث الرصيد المعرفي ولا من حيث الرصيد الإجرائي والمنهجي.

ومن معالم ذلك ظاهرة الفلاسفة الجدد New philosophers، التي ملأت الساحة الثقافية الفرنسية ابتداءً من منتصف السبعينيات، وشغلت نخبها إعلاميًّا. و لم يتوان الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز Gilles Deleuze(1925-1995) عن اعتبار أنساقهم المعرفية، مجرد معرفة هبائيّة أو فراغيّة[33].

---

[27] ibid., p.129.

[28] هاشم صالح، **الإستشراق بين دعاته ومعارضيه** (بيروت: دار الساقي 1994)، الصفحة 90.

[29] بنسالم حميش، **الإستشراق في أفق انسداده**، الصفحة63.

[30] Rodinson (M.), *La fascination de l'islam*, p.142

[31] أحمد الشيخ، **من نقد الإستشراق إلى نقد الاستغراب**، الصفحة 64.

[32] Rodinson (M.), *La fascination de l'islam*, p.125

[33] Deleuze (G.), *Les nouveaux philosophes*, Minuit, Supplément-n°24, mai 1977, Paris, p.14.

و نردف على ذلك بظاهرة المفكرين المزيفين Intellectuels Faussaires بتعبير الباحث الفرنسي باسكال بونيفاص Pascal Boniface. والقصد في ذلك إلى نخبة فكرية يتم تسويقها بمختلف وسائط الاتصال والإعلام، فتتحول إلى نجوم إعلامية تستثمر فكريًّا و ثقافيًّا في قضايا استراتيجية خطيرة، تحت صفة خبراء. و إذا سلّمنا افتراضًا بتعبير باسكال بونيفاص أنهم خبراء، فإنه لا يختلف اثنان في كونهم خبراء الوهم.

ومن التغيرات التي يعرفها مشهد صناعة الشرق، هذا المستوى الذي أصبح يميز تقاطع حقول الفكر والثقافة والإعلام في الغرب. ومن أخطر أمارات هذا التقاطع، هذه الريادة الغربية في التوظيف غير الأخلاقي للدعاية، في التأثير على الرأي العام بكل أبشع أشكال الإيهام، بواسطة صناعة هائلة من التمثلات والتخيّلات والتصورات[34].

ومن النماذج الحيّة لهذه الظواهر الجديدة في صناعة الشرق، الفيلسوف والخبير برنار-هنري ليفي Bernard- Henri Lévy. فهو المنظر والخبير والمستشار في قضايا العالم العربي والإسلامي في سياق الوقائع الكبرى، من قبيل الإنتفاضة في فلسطين المحتلة، أو المقاومة في لبنان، أو الحرب في البوسنة والهرسك، أو الحرب في كوسوفو، أو أحداث 11 أيلول 2001، أو الربيع العربي.

فهل هناك فعلا بنى جديدة في صناعة جديدة للشرق؟ وما هو الفرق بين البنى الجديدة والبنى القديمة؟

لعله ليس نافلة التذكير بأن المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمستشرقين، المنظم بباريس سنة 1973، أقر التخلي عن استعمال مصطلح الإستشراق بدعوة أنه ملوث، واقتراح مصطلح الإستعراب، من باب إعلان القطيعة مع الشمولية وبداية مرحلة التخصص بالعالم العربي وكل ما يتعلق به[35].

وليس هناك أدنى شك في أن هذه القطيعة ظلت نسبية إن لم نقل شكلية. ولا أدلّ على ذلك من **الكتاب الأبيض للإستشراق الفرنسي**، الذي أصدرته الجمعية الآسيوية بباريس Société Asiatique، سنة 1993.

فحمولة الإستشراق الإصطلاحية، دالة على إستشراقات متعددة تشترك منهجيًّا في قاعدتي الحداثة والمواطنة[36]. ولمصطلح المواطنة في هذا السياق دلالة فلسفية غربية، إذ تتأيّد عند الفيلسوف الألماني هيغل Hegel (1770-1831)، بقاعدة المجتمع المدني التي تمثل عنفوانًا في تطور الإنسانية، لأن للعقل المطلق صفة السيادة الكبرى[37].

---

[34] Huyghe (F.-B.), *Maîtres du faire croire: De la propagande à l'influence*, Vuibert, Paris, 2008, p.71.

[35] *Colloque du XXIXème Congrès International des Orientalistes*, L'Asiathèque, Paris, 1975, p.81

[36] Société Asiatique, *Le Livre Blanc de l'Orientalisme Français*, Paris, 1993, p.23.

[37] إبراهيم بوطالب، "تجليات المجتمع المدني في مسيرة الفكر الغربي"، مجلة **مقدمات**، العدد 11، (الدار البيضاء 1997)، الصفحة 40.

وقد صنّفت الجمعية الآسيوية، وهي مؤسسة أكاديمية رائدة في التشكيل المعرفي للشرق تأسست بباريس سنة 1822، الدراسات المجالية الجغرافية والثقافية للشرق في أواخر القرن 20، كالآتي: الدراسات العربية والدراسات التركية والدراسات الإيرانية والدراسات الآسيوية الوسطى والدراسات المغولية والدراسات التبتية والدراسات الهندية والدراسات الهند الصينية والدراسات الصينية والدراسات الكورية والدراسات اليابانية[38].

إنه ليس مبهمًا الإستنباط بأن التحوّلات الإجرائية والمنهجية، لا تعني بالضرورة إعلان القطعية مع المنطلقات المعرفية للصناعة التقليدية للشرق[39]. ولذلك صدع جاك بيرك Jacques Berque بأن الأمر لا يتجاوز إنجازًا لصورة الشرق بمناهج تقليديّة، ثم إنجازها بمناهج العلوم الإنسانية والإجتماعية[40].

ومما يقوّي عدم الإقتناع بوجود قطيعة معرفية، أنه من شروط القطيعة إعادة النظر في جملة من القواعد الإجرائية والمنهجية. ولعله لا يختلف اثنان في أن أدوات نظرية أو إجرائية سادت منذ القرن 19 واختفت فعلا في صيغها الأصلية، ولكنها تظهر من جديد في صيغ أخرى[41].

---

[38] op.cit, pp.211-285

[39] Khatibi (A.), *Chemins de traverse*, Institut Universitaire de la Recherche Scientifique, Rabat, 2002 , p.76

[40] Berque (J.), *Histoire et créativité*, in :(Etudes Orientales), Paris , N°7, 1990, p.57.

[41] غريغوار مرشو، "دور الأنتروبولوجيا في تأسيس الإستشراق"، مجلة **الإجتهاد**، العدد 49 (بيروت 2001)، الصفحة 68.